فلسطين: أشواق الزيارة المغربية الثانية

أحمد المديني*

وأنا أجلس الآن، بنية كتابة فصل جديد، ليلحق بكتاب سابق" الرحلة إلى بلاد الله، تليها الرحلة إلى رام الله، دار الأمان، الرباط، ٢٠١٥"، تتنازعني خواطر وأفكار شتى. أولاها أني أتساءل: هل من الضروري أن أكتب هذا الفصل؟ وأي إضافة يمكن أن يحملها، خاصة لكتاب صدر وحقق غرضه، وانتشر، وأحدث صداه المطلوب لدى القراء، مما يبتغيه كل ناشر، ويطمح له الكاتب. ثم أعود فأرى أن هذا التساؤل ينطوي على ما يُزكِّي، بل يحفز بقوة، على الإضافة ومزيد الإضاءة والقول القصد، المفيد في الموضوع المخصص له.

أعني ما دوّنت في الكتاب المشار إليه. كنت كتبت تلك الرحلة ساخنة، حية، بمجرد الانتهاء منها والعودة إلى بيتي، فيما ملايين الفلسطينيين ما زالوا بعد انصرام عقود، ينتظرون بشبه يأس، وإن لم يفقدوا الأمل بتاتا، حق العودة إلى ديارهم. غادرت رام الله، عبورا في طريق الإياب من أريحا، ومكاتب العبور الإسرائيلية عند جسر اللّنبي، ومنه إلى عمان مباشرة، وأنا شبه محموم، وأقرب إلى حالة المخاض(كناية لما تعيشه المرأة جسديا، طبعا)، عليّ أن أضع حملي، ثم أرتاح، هو أثقل من الاستمرار في التنقل به إلى أن يخرج وحده، وفي الوقت عينه أرفض له الولادة القيصرية، قد أحببت أن يأتي مستويا، حسن الخلقة، لا تشوبه شائبة، أحسب هكذا جاء، واحتفت به عيون ونفوس. إنما لا بد أن أعترف بأني كنت مغمورا بالحماس، قلبي ونفسي في غليان، ومشاعري معلقة بزمان ومكان كنت فيهما، ما غادرتهما إلا مضطرا، بينما عقلي في عطلة مؤقتة، ما لي حيلة في المشاعر التي جرفتني ولمّا ينطفئ أوارها، أنا ابن أمتي، من رضع من ضروعها الأصلية لغةً وحَسَبا وتاريخا وعقيدةً، وتربى بين أحضان محبتها والإخلاص لها بغير حساب ولا بحثا عن ثواب. أنا ابن النزعة العربية القومية في فطرة وجودها، ثم نضج وعيها، حتى ولا

* كاتب وروائي مغربي.

وزر لي في خسارتها ، تبرعمت منذ نُكبت الأمة بضياع فلسطين في ١٩٤٨ ومضت تكبر وتتفتح في نمو وغليان، بثورة الضباط الأحرار في مصر سنة ١٩٥٢، قد أرست قواعدها، وأعلنت شعاراتِها وبرامجَها، سواء راسخة أو فضفاضة، فقد شخّصت وتمثّلت هياكلَ ومؤسساتٍ وإيمانَ شعوب وتصميمَ أجيال، رغم أنها صُفعت صفعة قوية في النكبة والنكسة الثانية(حزيران١٩٦٧)، ورغم تكالب الاستعمار الجديد وسماسرته على أوطاننا، صرنا نُمنَى خسارة بعد أخرى، يتحالف ضدنا حكامنا قد وضعوا يدا بيد مع مستعمري أمس وصاروا أعضاء في بورصة تجارة واستغلال شعوبهم لا حُماةً لها ومحررين. بينما ظلت فلسطين بأرواح شهدائها، وبإرادة أبنائها المخلصين تكافح من أجل حقوقها، قضية شعبها، فوق ترابها وفي كل الآفاق تسمع صوتها وفي محافل الدنيا لتنتزع شرعيتها، بينما هي متجذرة في وجدان الأمة، بالرغم من كل من وما تكالب عليها، حتى إن البعض حولها خصما لا مطلبا، يراد لها أن تصبح نسيا منسيا، متقاذفة إما بين الوعود وإما المؤامرات، كلتاهما من ضرب واحد، حتى لأضحت حلما في الكرى، من ينادي باسترجاعهما، ولو بقصيد شعري أو بيان حزبي، قبل خراب الأمة وضياع الأحزاب، عُدَّ مثاليا قل الأدهى، أصيب ـ يا للويل ـ بمَسٍّ من جنون!. وإذن، فأنا وكثير من أبناء جيلي من المثاليين المؤمنين بحقوق أمتهم، وخاصة بعدم التنازل عن شبر واحد من ترابها المغتصب، أحببنا ونحب فلسطين، وحين أتيحت لي فرصة زيارتها كدت أخرج عن طوري فرحا، أما وأنا قبالة مسجد الصخرة، يعلم الله صرت في طور آخر لا إسم له، أنظر حولي للمكان، للناس، بمنتهى الذهول،، وما أزال!

* * *

في الزيارة الأولى، كانت المناسبة الحضور مع وفد مغربي للمشاركة في معرض الكتاب الدولي لفلسطين، المنتظم في مدينة رام الله، وقد اختيرت دولة المغرب ضيف شرف لدورة المعرض الجديدة، مما يقف القارئ على تفاصيله في كتابنا الأول. فيما الرحلة الثانية، أنعتها بالأجدّ والأوْكد، فهي التي أتاحتها لي وزارة الثقافة الفلسطينية بدعوة ضيافة لحضور المعرض العاشر للكتاب في رام الله(٧ ـ ١٧/ ٠٥/ ٢٠١٦)، مع كتاب وشعراء عرب غيري. والسؤال الآن، ما الذي يا ترى استجدّ بين زيارتين، لأخصّ الثانية، الأخيرة بوقفة مستقلة، تأملا وإحساسا وكتابة، لا سيما ولا جهة تطلب مني تقديم تقرير أو وصف لهذه الزيارة؟ أليس الاحتلال الإسرائيلي هو ذاته، لا بل يستفحل ويتسع في غرس مزيد المستوطنات ، ويستشرس في عمليات أكبر لقمع الفلسطينيين وانتهاك أبسط حقوقهم؟!. أليس وضع السلطة الفلسطينية الحاكمة في ما لا يزيد عن ٢٢ في المائة من مجموع التراب ذاته كما كان، صامدة في وجه الاحتلال، متصدية لأطماعه المتزايدة، متشبثة بحقوق الشعب الفلسطيني ما وسعها الأمر، فيما هذا الأخير متعنتٌ في موقفه، ويمينه المتطرف يمنع أي تطور يسمح بالدولة الفلسطينية بحقوقها المشروعة، في مقدمها حق العودة؟ ولكن، في الوقت نفسه، ألسنا نرى بأن هذه السلطة والشعب

بقواه الحية وجماهيره في الداخل الفلسطيني تحديدا، بين المدن والمخيمات، عنوانها وعنفوانها تشبثها بالأرض رغم كل أشكال التنكيل والتضييق التي تمارسها سلطات الاحتلال الإسرائيلية، قد حولت الضفة الغربية إلى سجن كبير، تتحكم في مداخله ومخارجه؟ بلى حدث هذا وأكثر، نرى الشباب يمنحون أنفسهم فداء للوطن، يقدمون أجسادهم، وحدها آخر ما يملكون، سلاحهم السكاكين وحدها، بعد أن عزّ الكفاح المسلح، يُقتلون،، يموتون فُرادى، ليأتي الصهاينة بعد سحق جثامينهم ليدكّوا بيوت أهلهم دكّا، وازعُهم، كالعادة، الانتقام ومحو الأثر العربي. بيد أن الأهول من كل ما حدث ويستفحل، هو أن قضية فلسطين، تبدو اليوم، وكأنها في آخر كل منازعات وقضايا الاحتلال في المحافل العربية والدولية. ففي مساحة الخراب العربي الهائل والمثير، بأشكاله كافة، سقطت فيه أنظمةٌ وتهشّمت دولٌ وتتداعى خلاله مؤسساتٌ وتتشرد شعوبٌ بأكملها، وتفنى أجيالٌ، طفولات وشبيبة، أمةٌ كلها تتحول تقريبا إلى قوافل للاجئين، ومن ينجو من هذا الخراب كأنه مؤجل لميقات، وحتما إلى وبال وزوال؛ وما فلسطين، إذن، كانت، وتبقى اليوم، قضية صغيرة، همٌّ من بين هموم في المساحة الشاسعة للخراب العربي، ولا ما ينبئ غدا ببشارة؛ أي فلسطين؟! يقول الواقعيون الجدد، كل ما في الأمر أن باقي الأنظمة والشعوب العربية تلتحق بماضيها، أي بنكبة ١٩٤٨، وتتجرع مزيد هوان، وقد برق بسرعة شهاب أمل، تسمّى الربيع العربي، فرحتم به، وحسبتم أنكم تزفون الثورة إلى بلدانكم، والديموقراطية ستطلق لها النساء الزغاريد، و، و، لا شيء، هي مجرد خيبة أخرى، تضاف إلى خيبة ضياع فلسطين، وشعوب أخرى تشرد كما تشرد الذين من قبلهم. هذا كل ما هنالك، أم أنه منتهى المقت والسخرية ؟!

* * *

لا يفوتني، بعد هذا، أن أذكر سببين إضافيين لا يقلان عندي وجاهة مما أسلفت، لكتابة فصل جديد عن رحلتي الجديدة إلى الأرض الفلسطينية المباركة. أولهما، قلت لنفسي، إني أريد أن أقوم بزيارة ثانية، بعد أن تخفّفت في الأولى من ضغط التوقعات والوساوس بأنواع، فذا من طبعي، وأن أنظر إلى الواقع بمنظار ما هو أمامي بتقدير معقول، لا مبالغة ولا تهويل. أذكر أني كنت مشتعلا حماسا ونحن نخوض الطريق إلى فلسطين، ينبغي أن نسميها، ونكرر التسمية دائما ونكف عن إسم الضفة، حتى ولو لم يبق لنا منها غير شبر، فهي فلسطين، التراب، والوطن، عند بابها جسر الملك حسين، تدور برأسي، ربما في رؤوس صحبتي في الطريق، أيضا،عشرات السيناريوهات من التوقعات والاحتمالات، مطبوعة كلها بالسوداوية والثبور، فليس لك أن تتوقع من مغتصب أرضك أن يستقبلك بالأحضان ولا الورود؛ توقعات من قبيل إمكانية العبور من عدمه، وعلى أي صورة سنجتاز الحدود المفروضة، حدود يتحكم في المرور منها الإسرائيليون بمفردهم، رغم أنها تفضي مباشرة إلى تراب(territory) السلطة الوطنية، الحق والعدل والقانون أن يكون الفلسطينيون هم شرطة حدودها وأفراد

جمركها، هم وحدهم من يسمح ويجيز الدخول والخروج، العبور والمنع؛ سيناريو آخر عن ما هي سحنات هؤلاء اليهود الذين نصبتهم القوة جندا وحرساً، من سيستقبلوننا، لكدت أتخيل لهم هيئات غير آدمية، استقيها من أفلام الخيال العلمي(science fiction) وأدير في رأسي وسمعي ما لا أذكر عددا من اللغات وما يخرج من أفواههم من عبارات أو ينطبع على وجوههم من تقطيبات وشكوك، فنحن العرب عندهم مشبوهون سلفا وإرهابيون بقوة احتمال صاعقة؛ ثم بعد هذا وذاك، ماذا لو منعني هذا الرهط من العبور، لأي سبب، إذن سأعود خائبا، لا، ماذا لو حبسوني، بوسعهم أن يجدوا أي مبرر، هو لا يعدمهم، وهم على صلة بمخابرات العالم كلها، وعندهم جهاز الموساد يعد من بين أقواها، وبإمكانهم تلفيق أي تهمة وادعاء، وغيره كثير خامرني من أسوأ توقع واحتمال، فبيدهم الحل والعقد، لذلك لا عجب أن رأسي وأعضائي تغلي على مرجل، وأقول ويوصي مرافقنا الفلسطيني، السّمح، الصبور، المدرب على المكان والموقف والمتعاملين؛ يوصينا ويعيد بأن نلزم أكبر قدر من الهدوء والحكمة والتعقل، وكأنه استحى أن يضيف: والخنوع، إن اقتضى الأمر، لأجل قضاء الحاجة، لم يقلها لكنه همس: هكذا هم اليهود، وزدت: وهكذا نحن العرب، لا نملك إلا أن نستسلم، أليس كذلك؟!

أما السبب الثاني للإقدام على كتابة الفصل الجديد، كما أسلفت،، فرأيته في نوع وثيقة السفر، ظهر لي أنها، كما تتوفر لديّ، هي بطبيعتها امتياز لا يحظى به رفقة سفري. ذلك أن العبور من الأردن إلى التراب الفلسطيني يحتاج فيه العرب، أصحاب الجنسيات العربية تحديدا، إلى وثيقة ترخيص، والسلطة الإسرائيلية هي التي تمنحها أو تمتنع، بعد أن تقدم جهة التنسيق أو مصالح الارتباط الفلسطينية طلبا بذلك. وكبير عديد الفلسطينيين وغيرهم لم يحصلوا على هذه الورقة الذهبية، أو يقضون سنوات في انتظارها لينتقلوا إلى الداخل الفلسطيني لزيارة ذويهم فقط، لا للإقامة بتاتا، إذ هي محدودة زمنيا بدقة. كنت في زيارتي الأولى شاهدا على هذه الحالة ساعةً بساعة، عندما وصل وفد المغاربة إلى العاصمة الأردنية، حيث نزلنا في فندق غران مارك، ومنه يُفترض أن ينطلق موكبنا، بعد أن تصل التصريحات، طبعا. لم أكن، من ناحيتي، أحس بأي قلق، لا يشغلني أدنى همّ، قال مرافقنا الفلسطيني أنت معفى من التصريح، وستمر مثل النسمة، بناء على الجواز الأوروبي الذي أتوفر عليه، ثم نظر إلى الآخرين، ممن لم يصل تصريحهم بعد، أما أنتم فستنتظرون، ونحن على اتصال مستمر لهذا الغرض. في مساء اليوم نفسه تقرر أن تنطلق المجموعة الأولى، مكونة إضافة إلى المغاربة من مصريين وعُمانيين وتونسي. كنا نحن الغادين مبتهجين، قد أخذنا حقائبنا إلى مخرج الفندق استعدادا للانطلاق، وبغبطة ظاهرة، يمتزج معها أننا، نعيش في الحقيقة لحظة حرجة. رفاقنا الآخرون، نرنو إليهم جالسين، هناك، في زاوية من بهو الفندق الواسع، قد تجمعوا

ينظرون إلينا، كأنهم ليسوا منا، أو نحن غرباء عنهم ،لا شك الحسرة تأكلهم، ونحن الأسف يعصرنا، أيضا، ولا حيلة لنا في الأمر. لم يكن موقفا مريحا بتاتا، أيّ فرز غريب هذا يقوم به الإسرائيليون، وما هي معاييرهم لقبول هذا ورفض ذاك أو تلك، هذه الغربلة. ثلاث أديبات كُنّ بدورهن ينتظرن على أحرّ من جمر، ورغم ما حاولن إبداءه من بِشر على وجوههن ما استطعن إخفاء خيبة تفضحها ملامحهن، لم يخفف منها سوى أنهن ثلاثتهن ما زلن، وربما يبقين، متساويات في مصيرهن، محرومات من التصريح، وكذلك كان. وصلنا إلى مجمع / معسكر العبور- سبق أن وصفته في كتابي من قبل ـ فرأينا العجب، مررنا جميعا أخيرا وبتفاوت في الوقت والمعاملة والمقت وحتى التنكيل النفسي؛ ما همّ. أنت إذ تعبر تعتبر أنك فُزت، وتنسى ما كنت فيه قبل دقائق، تحس بك محظوظا قياسا بسواك؛ هي فلسطين، ومن أجلها كل شيء يهون.

قلت لمخاطبي، وقد تلقيت الدعوة الثانية، الشخصية هذه المرة، لحضور معرض الكتاب الدولي الفلسطيني في رام الله، إني سأستخدم جوازي المغربي، وهو ما يقتضي عندئذ طلب التصريح، قلت هذا أعلم بأني أغامر، إنما بيقين أني، سواء تمكنت منه أو مُنعت، فسأتساوى مع بني جلدتي، ولا أحس بأي فرق أو امتياز مغشوش إزاءهم لحملي المفتاح السحري، الجواز الأوروبي. أريد أن أجرب المجازفة هنا، معه احتمال المنع بأثره على النفس، وأرى كيف تجدك مقصوص الجناح وأنت في وطنك، فبلاد العرب أوطاني(كما زعم الشاعر)، الفلسطيني الذي يعيش في أرض الضفة الغربية، حيث تسود السلطة الوطنية، ولو سيادة ناقصة، ممنوع، مثلا، من زيارة القدس، وهي على مرمى حجر، تسمع أكثر من واحد يعلنها ويعيد بتفجُّع لا طاقة بتحمله، بينما الأوروبي، أو حامل جوازه، تراه يصول ويجول في هذه الأرض التي اغتصبها بنو صهيون حيثما وكيفما يشاء. وأعترف أني وقد حصلت على التصريح وركبت الباص من مدخل الفندق في ظهيرة يوم ٨ أيار(مايو) ٢٠١٦، مع إخوة مغاربة وعرب باتجاه جسر اللنبي، ومنه إلى الوجهة المقصودة، بدأت رحلة مختلفة عن سابقتها، ربما قررت أن أجعلها تختلف، كي لا أحس فيها بأي ملل، حالة من سيعيد مشاهدة ما فات. وهذا بعض ما سأحاول نقل مجمله، صورا ومواقف وخطرات في هذا الفصل الإضافي، أتمنى أن يغتني به كتابي السابق عن رام الله، ويتجدد، وأنا أهتدي بالحكمة اليونانية القائلة عند هراقليطس (٥١٣ ق م):" إنك لا تسبح في النهر مرتين لأن مياها جديدة جرت فيه".

* * *

في ظهيرة اليوم الموعود، ها أنذا أصل إلى النقطة الإسرائيلية للعبور. عند الاقتراب منها، صرت أهوِّن على رفقتي الأمر. أقول لهم هي جملة إجراءات، على ويلها وفظاظتها، وتنتهي، ونحن إثرها نمر. لم أتوقع مفاجآت، اللهم أن تكون المعاملة قد زادت سوءاً عن ذي قبل، عن ما رأيت في الزيارة الأولى.

وخاب تقديري، وجدنا أمامنا، أولا، بعد نزولنا من الباص، وجررنا أمتعتنا، لا طابورا فحسب، بل حشدا مُتجمعا باكتظاظ شديد أمام شباك وحيد، ينبغي أن يتسلم منه كل مسافر، عبر شق كجحر فأر بطاقة مرقمة، حسب عدد حقائبه، بطاقتان، ثلاثة. إنما، كيف الوصول إليه، حتى ولو مُسختَ فأرا، وربه، كإله، منتصب فوق كرسي مرتفع خلف شباك دونه أسلاك، شاب أشقر بشعر كثٍّ، كثيف بجدائل، ضوضاء عالية، وأجساد تعجن بعضها بين تدافع وتداخل، وهو ينظر إلى الجمع ـ الكتلة المعجونة من عليائه، بأي تعالٍ، كنخّاس يسوم عبيده وإماءه، المحظوظ من وصل أمامه يدفع إليه الجواز ويعلن عدد متاعه، ليمد له البطاقة أو زيادة، أو كما رأيت يستنكف ويزورُّ عنه، وعن الجمع الضوضائي كله، متشنجا ورافعا كلتا يديه في الوجوه، معبرا عن اشمئزازه بتقطيب وتجعيد جبينه ووجهه، لم أر من قبل امتعاضا مماثلا، وحين تنتهي هذه الوجبة يستأنف تسليم البطائق بتقتير شديد، تراه يحب أن يتلذذ وهو يرى الجمهور العربي ينبطح ويتعثر وحتى يتباكى لا فرق عنده بين الرجال والنساء، والأطفال الرُّضّع، وكبار السن، تضيع المراعاة واللياقة، وحسن التربية، أيضا، في هذا الجمع الهجين، من هذا اليهودي القادم رسولا، قيل، من أصقاع تزعم الحضارة والرقي والتهذيب، ومن تبقى من العالم بعده، بعدهم، وحوش وسقْط بشر، كأنما خرجوا سهوا من أرحام أمهاتهم إلى الوجود!

حتى إذا ربطت البطاقة الممنوحة بمنة شديدة بحقيبتك، وسلمتها إلى عمال عرب، يتكلفون بأخذها، وأنت محاصر بينهم،ـ بعد أن تنفحهم ـ إلى جهاز مراقبة إلكتروني، يصبح عليك أن تلج قاعة تشبه بأبوابها وشبابيكها وحراسها ومفتشيها ما تراه في الأفلام الأمريكية من قاعات مداخل السجون ـ فتحس بمغص في جوفك، وصدأ في حلقك، تزيغ عيناك منك لحظة لترتدا إليك كي تواجه العاجل، أي أن تلقي ما تبقى بيدك، حقيبة يدوية هي أو أي حمل آخر، إلى الحزام الدائري لفحص إلكتروني، وتمر، كما في سائر المطارات اليوم من باب المراقبة، وأنت وحظك كذلك. عبرت بلا أي مشكل. بعدي مباشرة، من ورائي، علقت فتاتان في الممر. أوقفتهما شرطية إسرائيلية من عمرهما،ـ كل شرطتهم وحراسهم على الأغلب شباب ـ وطلبت منهما ابقيا هنا، بعد أن أزاحتهما جانبا كأنهما جانيات أو إرهابيات، تقع عليهن نظرات الواقفين والعابرين، بين سياط وتشكيك وشفقة ومخاوف، وهما أيضا امتلأتا كما حكين لي لاحقا بالخوف والقلق، صرن يتساءلن هل فيهن أو عملن ما يثير أي شُبهة في حياتهن، أو ما شاكل. بعد وقت، أخذتهن الشرطية اليافعة، وأدخلتهن مخدعا خفيا عن الأنظار، وأمرتهن بنزع ثيابهن كاملة، وطفقت تتحسّس بآلة بيدها لحمهن، لم يبق جسدا بل تحول تحت آلتها إلى عجين يتمطط ويتقلص حسب إرادتها ووازع الشك والشُّبهة عندها، حتى إنها جلبت قفازا ودفعت أصبعها في أماكن حساسة، ونحن، تقولان، نتلقى معاملتها بصبر ندرك أنها يمكن أن تتذرّع بأي شيء لتطردنا إلى حيث جئنا، فينجح بهذا مخططها.

بعد أن وضعت حقيبتي اليدوية لتنزلق في حزام المراقبة، مررت تحت الباب لأتلقفها من الجهة الأخرى، من حسن حظي لم يرن الباب، لسبب من الأسباب. هنا كان شرطي أو حارس، فارع الطول، يقف في مخرج الحزام، وإذ أمدّ يدي لسحب الحقيبة يقذفني بنظرة احتقار كاملة، قد استبشعَ وجهه، وتكلم أو نبح، لا فرق، ميزت بصعوبة من ثقب هو فمُه ما يعني تقزُّزُه بدعوة لي أن أتحرك أو أبتعد أو أسحب شيئي وأختفي، هو ما جعلني أنقلب إلى كتلة صماء خرساء، لا أفهم، لا أسمع، لا أتكلم، كل ما أفعل هو مواجهته عنادا بالنظر، وتوقع أي احتمال، لا أبالي بأي عاقبة، قد فهمت اللعبة، واللعبة هنا لدى هؤلاء الحراس المتحرشين، والشرطة الإسرائيلية عموما هو أن تشعرك إلى أقصى حد بالقرف، الندم، وتغيظك بأقصى درجة، تنال فيها الاحتقار وتشعر بالصغار، لكي تندم على قدومك، وتقسم بأغلظ الأيمان، مؤمنا كنت أو كافرا، أنك لن تعيد الكرّة، لن تعود إلى زيارة هذه الأرض مطلقا. فإن شئت أن توقن بأنك لم تخطئ التقدير، وتتأكد من نوايا هي في الحقيقة لا تحتاج إلى تأكيد، تعال معي، وقد انتهت مواجهتي مع الحارس المقرف، واجلِس إلى جانبي تؤانسني وأنا آخذ دوري لكي أتقدم نحو شباك آخر، لشرطة الحدود، كي تراقب جوازي، لا أضمن لك مدة الانتظار: دقائق، ساعة، ساعتان، رغم أن فضاء المكاتب شبه فارغ، وها رؤوس العاملين، العاملات، ناتئة من خلف الزجاج، أمامي عربي، فلسطيني، واقف كالصنم، رأسه مُنكّس، بهيئة الذليل، وسيما المهزوم، المستسلم لقدر لا قِبل له بردّه ولا منازعته، والشرطي أمامه، ينقل بصره بين الجواز أو الوثيقة أمامه، من خلف نظارتيه، عيناه ثابتتان، ووجهُه أصمّ بلا تعبير، لا يكلم " المتهم" قبالته، هو متهم حتى تثبت إدانته، يزرع الشك وألف سؤال في نفسه، سيتجاوز الموقف هل يسمح له بعد أن قضى ما لا يذكر من وقت ومكابدة كي يحصل على التصريح، ويقيم الأعراس في قلبه بأنه أخيرا ها هو سيرى الوطن الذي ُطرد منه جدُّه أو أبوه في نكبة ٤٨؛ الموقف الأعظم الآن، هو أن يفلت بجلده، ما يدريه أن تُلفَّقَ له تهمة، أن هناك من جمع معلومات، أو وشى به لدى هذه السلطة المحتلة، بأي فعل لا يَذكر أو يعلم أصلا أنه اقترفه، من الخلف أتصور أن جبينه ووجهه ابتلّ عرقا، وأنا من الخلف أرى قميصه فعلا صار بليلا، واختبارُه الأصعب أن يظل مغروسا في وقفته كالرمح، لا ينبغي لوجهه أن يشيَ بأي خوف أو قلق، سيتيح بهما لمواجِهه أن يتمتع أكثر بإطالة أمَد وقوفه وتساؤلاته الحارقة، أن يبلغ به ذروة نشوة التنكيل!

كنت هو، ولم أكن أنا في آن، وقد حان دوري. استنفدت قلقي قبل الوصول عند الشباك، بحساب أن ليس لي ما أخسره مع القوم. أعاد الشرطي، وهو بلباس مدني، التمثيليةَ عينَها، بتغيير طفيف، حين قدمت له جوازي مرفقا بالتصريح، استغرق ينظر أو يقرأ فيهما، وأصابعُه كما أقدّر ترقن على أزرار الحاسوب، لعلها تسعفه بمعلومات(خطيرة)عني، تحبط مخطط دخولي(تسللي) المشروع والعلني

إلى التراب الفلسطيني، فأعود خائبا ألعق أصابع الندم، قد أضعت مالي، ووقتي، وخصوصا أهينت كرامتي، إن بقيت منها فضلة، ها ! زاد في الطين بِلّةً، إذ التفتَ إلى زميلته بجانبه وهي تعالج ملفا مثله، تهامس وإياها، متظاهرا أنه يُطلعها على ورقتي، شيءٌ من هذا القبيل، وهي بدورها تشاركه اللعبة المقيتة، تظاهرت بأنها تستجيب لما يطلب فتُمعن النظر في الملف، وتستأنس بالهمس، ولكي تتقن الدور جيدا رسمت، كبهار وملح، ابتسامةً مصطنعة، انتهى معها السكتش الملفق، وأنا مغروس كالرمح في وقفتي، إنما ولأغيظ مواجهي قطعت نفَسي، وأشحت عنه تماما، يحاول أن يتصيّد عينيّ أو أي نظرة عابرة مني إليه، ولا يظفر بها، ثم يتظاهر بنسياني مُسقطا بصره على ملفي ، أو أي شيء من هذا القبيل، ليعود يرفع وجهه تجاهي كمن يرغب في التثبت من سحنتي يقارنها بالصورة في الجواز، يفعل ويكرر، وأنا ثابتٌ كجبل، متسلحٌ بقوة لا مبالاة، آليت على نفسي أن أتصدى له بها، مهما كلفتني، بل إني أخذت أراوغ عينيّ بنظرات أبعثرها يمينا وشمالا في المكان، أُفهمه أن لي رباطة جأش لن أتخلى عنها، ولن يحقق نشوته بالبلوغ معي ذروة متعة الإهانة والتنكيل المطلوبتين من هذه المعاملة، قبل أن يضع، أسمع الختم يطبع فوق ورقة بيد تهتز عاليا وتسقط عيناه لا تبرحانني كأنهما مقصلة، هو تصريحي أخيرا، وهذا هو المهم، لا الوقت أذكر كم قضيت، ولا الحقد كم راكمت، ولا الكراهية المُصوّبة من نظرات رشّاش صامت الطلق تلقيت؛ تصريحي أخيرا يمده إليّ من فجوة الشباك مع جوازي، وأنا أُبدي له أني لا أبالي، لا، لن أنسى ولا أبالي حتى إني أشكره بهدوء وأنصرف، ها!

* * *

دخلنا رام الله في أول الليل، وإذ بها من أشعة أضوائها، وقوة مصابيحها، وحركة سياراتها، وتنقل البشر فيها، نهارٌ في نهار. كأنما تعمّد سائق باصنا أن يولِّد عندنا هذا الانطباع. أدخلنا إلى المدينة من طريق الجنوب الغربي، الطويل، والذي يخترق مخيم قلنديا وموقعها الخانق المؤدي إلى معبره الشهير، ومنه إلى مدينة القدس. تجاوزت الساعة التاسعة، والمحلات التجارية مفتوحة، وصخب الباعة والعابرين إلى عنان السماء، خُضنا في الأزقة الداخلية، ووقعنا في مأزق الزحام، سيارات على مدِّ البصر، سألنا هل من حدث أو احتفال، فسمعنا لا، المدينة هذا حالها ليل نهار، ياه،عدا القاهرة، فالمدن العربية تنام بتوقيت الدجاج، وتدفعك للتثاؤب مع أول المغيب. لولا حقيبتي لنزلت في منتصف المرور. قلت لراكبٍ إلى جانبي، إني ظمآن يا صاح، وطقس الليلة دافئ، ثم تنبهت لأهمية الانضباط، فأنا ضيف، ينبغي أن أبلغ الفندق أولا، وأسلم على من سيستقبلنا، ويحمد لنا السلامة، وبعدها لي أن أفعل بنفسي ما أشاء، أقصد، حسب الإمكان، كما كنت أفعل مع رفقتي المغاربة في الزيارة السابقة، نقوم كل ليلة بغزوة إلى عنوان، ونكتشف أن عاصمة السلطة الفلسطينية فيها

من لا ينام، يُقبل على الحياة، بالحماس نفسه الذي يُقدم فيه شباب ومقاتلون على الاستشهاد، من أجل الوطن.

من زيارتي الأولى، أحسست أنك لا تحتاج إلى إقامة طويلة هنا لتقترب من رائحة الناس وتقيم علاقة بالمكان، إنها مدينة تُؤلف، وما يؤلف يطيب العيش فيه والعين تقرّ به والبقاء أوكد وأنسب من التنقل إلى سواه. هذه أرضٌ لا تُستبدل بأي شبر آخر، فكيف وهي اليوم رمز، عاصمة مؤقتة لوطن، وطنٌ جله محتل، وهي عامرة فيه، مزدهرة، هامتُها عالية، وسكانُها يذهبون إلى شؤون أعمالهم، كالتلاميذ والطلاب إلى مدارسهم وكلياتهم، وكلٌّ إلى شأنه يسير كقوم جادين، قد يحسبهم القادم إليهم من خارج أن أوضاعهم طبيعية، وليسوا تحت عنَت احتلال غشيم، لذلك وإذ يمكث هذا الوافد قليلا ليرى ما ينبغي ويصحّ أن يرى، سيندم إن كان تطاول على هؤلاء القوم، أو تفلسف بالشعارات والكلمات التي لا تكلف شيئا أكثر من لسان يلوكها بتنطّع ورتابة مملة. الواقع، سواء أحببته أو نفرت منه هو الحقيقة الوحيدة تواجهك، تشمّها، تفركها كل لحظة بين يديك في انتظار أن تقبض على الحقيقة كاملة، لو أمكن وجودها. ذا بعضُ ما ظهر لي وأنا أتنقل في الأرض الفلسطينية المتاحة أن الفلسطيني يقبله ويتعامل معه صامدا فيه بفكرته وحقوقه المشروعة التي لا تقبل التنازل، ويعطي في كل ساعة للمحتل الغاصب، وللعالم أجمع، صورة الشعب الذي يعرف ويستحق أن يعيش، ويُقبل على الحياة، إذا ما استطاع إليها سبيلا، كما جاء على لسان شاعره وشاعر العرب أجمعين محمود درويش. في رام الله تتحقق من صدق وعمق، وأيضا من فطرة هذا القول. من الصباح إلى أن تنطبق آخر الجفون، الحياة في رام الله ضاجّةٌ، مُفعمة بالحيوي، تنساب في الكلام الودود والرأي السديد، في الكدح، في الحب والصبر، بين الشعر والنثر، الشدّ والجذب، وتبقى الإرادة ثابتة لا تخنع، يموت المحتل غيظا تقول نموت هنا ولن نركع.

والحياة التي جئنا من أجلها في هذه الزيارة، وأنا أسميها صلة رحم، وأنزِّهُها عن أي صفة من الصفات التي ينعتها بها العُمي، البُكم، الذين لا يعقلون، أو يعقلون فقط ما توسوس لهم به أفكارهم السياسية المريضة، فيما هم المتقاعسون ـ هذه الحياة لها من بين عناوين كثيرة وكبيرة، الكتاب، هذا الذي تحتفل رام الله بعيده، كل عامين. من حاجتها، ونقصها، وطعامها ونومها واللائحة الطويلة لمطالب أهلها، فوق تربتها وتراب فلسطين كلها، تجتزئه منها، أثَرةً، لتخصصه لإقامة معرض للكتاب، أُسوةً بباقي العواصم العربية، أو ما تبقى منها على الأقل. يُفترض أن تتحول في هذه المناسبة إلى قطب جاذبية، أن تتسابق بلدان العرب إلى المشاركة الفعالة في هذه المناسبة الفريدة وأن يكون حضورها دعما لقضية الشعب الفلسطيني، بأبعد من حسابات السياسة ومناورات الكواليس والولاءات الظرفية، لكن هذا من أسف لا يحدث، أو من جهات قليلة، ومنها

المغرب الذي حلّ في المعرض السابق ضيفَ شرف، والكويت التي خلفته عامنا هذا، وهي مبادرة محمودة، يشعر بها الفلسطيني ويحتفي رمزيا أنه غير معزول، أن هناك من يكسر قضبان الزنزانة الكبيرة التي حبستها فيه إسرائيل، ويمعن عرب متعصبون بحشرهم فيها بزعم محاربة التطبيع(مع العدو الصهيوني، يقولون، وحكامهم معه جهارا وسرا يفاوضون، ومثقفوهم ومناضلوهم (الكبار) على أمريكا حاميها الأكبر يتهافتون. فأي بهجة وبشاشة على وجوه مضيفينا، من مدخل الاستقبال في أريحا، وامتدادا إلى حيثما حللنا، أحضانا وترحيبا وعناية، ما لا تلقاه في البلدان المرسخة سيادة، المتمكنة مالا وشوكة.

ولجت معرض الكتاب، الواقع عامنا هذا في مساحة شاسعة، عند سفح التلال الغربية للمدينة، يتكون من أربع فضاءات، ثلاث منها لدور النشر، والرابع للقاءات الثقافية. وهو ما لا يعد هينا على الأطلاق، إذا علمنا أن الدور المشاركة تنتظر طويلا إلى أن تحصل على التصريح(الإسرائيلي) لإرسال كتبها وممثليها، وهي تصاريح تصدر ب(التقطير) أو تمنع ببساطة، دون أي تفسير، أضف إلى هذا التكاليف. لذلك فإن الدور التي تشارك تجني من حضورها الرمزي والتضامني أكثر من أي شيء آخر، علما من أن حقها البيع والربح أولا. وبوضعيتها الصعبة استطاعت أن تحمل وتعرض كمّا لا بأس به من العناوين والإصدارات الحديثة جدا، تجاوبا مع حاجة وتعطّش قراء متوفرين، يحجّون إلى المعرض من المدن والبقاع الفلسطينية، قريبة وبعيدة، ومن غزة أيضا، كلما أسعفهم المحتل بترخيص المرور. هكذا، وبفضل هذا المعرض، بوُسعك أن ترى كيف يصبح الكتاب، ليس خير جليس في الزمان كتاب، على قول المتنبي، فحسب، بل زد عليه، مناسبة للقاء أبناء الوطن الواحد، فرّق بينهم المحتل، وباعدت بينهم الجدران الأمنية، العالية، الواقية لأمنه. فمن يافا وحيفا والناصرة والجليل وكل البلدات المقيدة اليوم في ما يسمى دولة إسرائيل، توافد الزوار، الرجال والنساء وكثير من الفتيان، سكنوا عند أهلهم أو في الفنادق، أكثر من يملأ قاعة المحاضرات، ويسأل ويناقش متعطشا لأي جواب، ما نسوا ثقافتهم، هم المحسوبون في عداد عرب ٤٨، أي من حاملي الجنسية الإسرائيلية، ولم أر دليلا قاطعا لفشل المشروع الصهيوني كما عندهم وبحماسهم، وصمودهم، والدليل الذي يقدمونه كل فرصة على حُر فلسطينيتهم. حين تطوف بأروقة وأجنحة معرض الكتاب، وتقابل العارضين، أغلبهم أصحاب دور النشر أنفسهم، وتختلط بالزوار، صباحا وظهيرة وعصرا ومساء، يتوافدون، وبما تيسّر يقتنون، وتنتبه للندوات واللقاءات المنظمة بموازاة هذا، يحضر فيها المدعوون من خارج الضفة ومن أبناء المكان، باحثون وأدباء وحتى فتية وشباب ناشئون؛ حينئذ تقتنع أن الثقافة سلاح قوي في معركة الفلسطيني بالداخل، لا تقل نجاعة عن الأسلحة الأخرى، وهي تشحذ مزيد صمود وتشبث بالأرض وحقوق أبنائها، أمس واليوم. لكم فاجأني عدد دور النشر الفلسطينية

في الداخل، بين مدن الضفة الغربية وفي يافا وحيفا، بأفخم طباعة وأجود مادة، مثلما اغتبطت لعدد المواهب يزحَم بعضها بعضا في سائر فنون الأدب، من أسف يبقى حضورها على الأغلب محصورا في الداخل، كجزء من الحصار الشامل المفروض على الفلسطينيين. حصار يكسره الراميون والحيفاويون واليافاويون بكل الوسائل، لا تعجب إذ ترى نوادي الثقافة ومجالس الأدب والسمر والطرب تنتظم هنا وهناك، والمواهب وسطها تتفتق، ستحتاج أن تضبط إيقاع وقتك وميولك كي تحسم أين تسهر ليلتك في رام الله، تستمتع وتستفيد وتنهل من معين محبة وجَوْد دافقين بلا حساب، فإنك هنا فعلا في حضن الأحباب.

* * *

بيد أن رام الله، مهما أعطت وبذخت، مهما جادت وتبرجت، شمسها دافئةٌ وأشجارها وارفة، تحبها وتحس أنك تتأرجح صعودا، هبوطا، بين تلالها وسفوحها، لا يؤذيك قبح أو ينفّرك منها نفاية، النظافة طبعٌ في أهلها، مثل الحديث الهامس والابتسامة المفروشة تستقبل الزائر؛ أقول رام الله تبقى كأنها مدينة حدودية، لأن المقيم فيها، والوافد إليها، همُّه وشوقه وأمله، أن يعبر إلى الجهة الأخرى، القريب الذي جعله الإسرائيليون بعيدا، أقاموا جدار الفصل العنصري بارتفاع تسعة أمتار، ادّعوا أنهم يحمون أنفسهم وأرضهم (التي اغتصبوا، طبعا) من الإرهاب، ليظهر تعريف جديد للإرهابي معناه من يطالب بأرضه، مثل الفيتنامي أمس في وجه الأميركان، والجزائري في وجه فرنسا الاستعمار، وأي احتلال كان لأرض الغير. الجهة الأخرى، هي القدس، والقدس عند المسلمين عامة هي المسجد الأقصى وقبة الصخرة كما الكعبة عند الحاج، الطواف حولها أول المناسك وجوهرها، رؤيتها تخشع لها الأبصار وتضطرب الأفئدة ويطير العقل حتى لثمة من يحب أن يبقى ملتصقا عندها بأستارها، لا منطق هنا إلا ما تراه، ولن تفهمه إذ تذهل النفس عن نفسها، وإلى الصخرة القبة، تُرى في الطريق السّيار، وأنت ذاهب من رام الله إلى بيت لحم، مشعشعة، تخطف البصر، وبمجرد رؤيتها تفيض معها الخواطر، الديني والموروث والمكبوت والإحساس بغبن المحتل وبؤس الحاضر، والإلهي المقدس يجلل هذا كله، وتراك من حيثما امتدت الطريق تطوف بها، أو إن البصر يرتدّ إليها، وهي لن تغيب عن ناظرك لأنها سكنته، لن تزول، ستلاحقك وتلاحقها إلى أن تصل إليها وتصبح قبالتها، وتنضوي تحتها أخيرا، وتبقى لا تصدق، أهي أم هي أم؟!

هل أحتاج إلى القول بأن الشوق يكون على قدر المشوق إليه، وبقدر الجهد المطلوب للوصول إليه. وكذلك القدس. هي المبتغى الأصعب بالنسبة للفلسطيني المبعد. ممنوعٌ عليه زيارتها، أصبحت جزءا من أرض إسرائيل بعد احتلالها سنة ١٩٦٧، في النكبة الثانية، إلا بترخيص، الحصول عليه، بالنسبة للبعض، ضرب من المستحيل. يسري المنع على العرب الزائرين لأراضي السلطة الفلسطينية،

لم يُسمح لهم بالدخول إليها، بالعبور، كما أسلفنا، إلا بتصريح من السلطة الإسرائيلية، وهذا الزائر العربي، لا يقرّ له قرار ولا يهدأ له بال، مذ يعبر، إلا بزيارة القدس، وبحث السبل والحيل وأي إمكانية لتحقيق هدف هو كحج البيت الحرام، إن لم أقل أكثر، ما دام الحج على تكاليفه وقرعته اليوم متاح وممكن، في ما يجيب المضيف الفلسطيني كل راغب، متوسل، متلهف من ضيوفه، أنه شبه محال. يخفف منه حتى لا يحس الضيف بالقنوط، وتَسوَدّ في عينيه الإقامة، سيحسب إقامته هنا بمقياس الربح والخسارة، الروحية طبعا، بينما ليس للمضيف حيلة، أيّ حيلة له مع عنت الاحتلال؟!

في زيارتي الأولى لم (أحمل)هذا الهمّ، إذ عبرت بجوازي الأوروبي، يسمح لي ـ بثمن استنطاق طويل ومجهري في(المعبر الحدودي الإسرائيلي) بالتنقل حيث أشاء، من الأرض التي تحكمها إسرائيل، من ضمنها القدس، غيرَ معنيٍّ سلفا بحديث السفسطة عن(التطبيع) من عدمه، تاركا هذا الترف لهؤلاء(الشجعان) ممن يعيشون في الوقت الضائع برفاهية أكبر، لا أملكها ولا طاقة لي بتبعاتها. فضلا عن أني لا حق لي بالمزايدة على أصحاب الأرض، هم من يملكون الحق المطلق، أولا وأخيرا، في خوض أي طريق وبأي وسيلة لاسترجاع حقوقهم، وأنا معهم ولهم نصير. جئت هنا، ولبّيت الدعوة مرة ثانية، لأعبر عن هذه النُّصرة وسأواصل كلما استدعى الأمر ذلك، وأسعفتني صحتي وإيمان لا يتزعزع بمناصرة أشقائي. أما وأني عبرت بجوازي المغربي، العربي، فالأمر اختلف، والقدس، ما أبعدها الآن، تظهر دونها شوك القتاد. قلت في نفسي، وفي اليوم التالي، وأنا أتحايل على نفسي، قد اعتراني الندم، يا أنت ما لك وجواز العرب، بينما جواز الغرب كمصباح علاء الدين، الآن هيت لك. التفتُّ يمينا وشمالا، أرى الشاعر الشاب ياسين عدنان مثلي متحير، وإلى جانبه صنوُه التونسي سامي الذيبي، معا يضربان أخماسا في أسداس، يسألان، في حيرتهما يتساءلان، كيف الوصول إلى القدس وما لهما في الأمر حيلة، أقترب منهما أحاول أن أهوِّن عليهما ما يشبه (المصاب) يا الأصدقاء لنغنم أولا من حاضرنا في رام الله ما يتيسر والقدس لها إن شاء الله مدبر حكيم. وتفرقنا على خطة أن يناور كل من جانبه ليتيسر المرام. ومن جهتي، قلت أتمسك بالسيدة البتول، من الفريق المسؤول عن إقامتنا وتنقلنا، دائمة الحضور في فندق (غران بارك)، وهبها الله حسنا أخّاذا، لم أر في أي منتدى إنسانا أكثر منها بِشرا وسماحةً ورحابةَ صدر وتهذيب لسان، يفيض بالكرم ويعد بكل خير، لا تقلق، وأنا متربص بها حيثما تحركت، حاجتك مقضية بإذن الله، وهي تتصل بمن يعنيهم الأمر في إدارة المعرض، وخارجهم، وفي نهاية اليوم الثالث من الزيارة تزفّ لي البشرى، غداً تصبح جاهزا في العاشرة صباحا، فأخِفّ إلى الشاعرين الشابين أبشرا يا متيميْن، هي القدس غدا في الإمكان.

* * *

قبل العاشرة حضرت جاهزا إلى الموعد. وجدت البتول قبلي مستنفرة، أخبرتها أننا سنكون في مغامرتنا ثلاثة: ياسين عدنان، وعبد الغني نسيم، وعبد ربه، أما الشاعر التونسي فقد تدبّر أمره لغير جهة، ولم أستغرب منه ذلك، لاحظت أنه مبتلى بالتخفي والأسرار كأننا هنا في إقامة سرية، وللناس مذاهب. عبد الغني مسؤول دار الأمان المغربية للنشر فاجأني صباح يومه، إذ قال، أنا أيضا سأصاحبكم، فاستغربت، أعلم حرصه للإشراف على رواقه في المعرض، لا يغادره من أول افتتاحه حتى أوان الإغلاق في التاسعة ليلا إلا ليقتات لُقيمات في الثانية ظهرا ويؤوب إليه في الحين، كأنه في معرض فرانكفورت أو مونريال! قال إنها القدس يا أخي تستحق كل التضحيات، صحيح أني زرتها مرة، ولو تأتّى أزورها مرات" أولى القبلتين وثالث الحرمين"، صادقاً لهج بها الرجل، أعرف إيمانه ليس له حدود. نادت بتول، قد افترش محياها ابتسامة بطعم يوم مشرق جديد، هيا يا شباب، ضحكنا طبعا بامتنان لهذه المجاملة، وتبعناها نغادر بهو الفندق ونقف ببابه مستنفرين مثل تلاميذ سيأتي الباص المدرسي لينقلهم، وفي الحين وقفت سيارة صغيرة من نوع رونو، نزلت منها سيدة متوسطة الطول، أميل إلى السِّمنة، حنطية البشرة، شعرها منفوش قليلا، وصوتها غطى سريعا على أي صوت، كنت قد علمت أنها صحافية من طاقم المعرض، ومناضلة أباً عن جد(سأسميها ن) جلس ياسين إلى جانبها يناسبه الكرسي الأمامي ليمد فيه ساقيه الطويلتين، جلسنا عبد الغني وأنا في الخلف قانعين. وهوب، انطلقت السيارة، ومعها نون كأنها تذيع نشرة أخبار عاجلة ومنذرة واستثنائية، لها موضوع واحد، وحيد، كيف ستتدبر أمر الدخول بنا إلى القدس، ونحن بلا تصريح، كيف لهؤلاء اليهود أن تعمى لهم الأبصار؟ كيف وكيف؟؟ كان سلاحها و(سحرها) أنها من ساكنة حيفا، وبالتالي ترقيم سيارتها في إسرائيل، ولكن هذا لا يكفي. إنما أول الاحتياط هو تجنب معبر قلنديا ومحاولة العبور إلى زهرة المدائن من المعبر الآخر الخاص بساكنتها، أكثر سيولة وهي من هذه الساكنة أيضا، لا ننبس بنت شفة مع إخبارها وحدوسها ووسواسها، وهي تضرب الحسابات، أخذنا نقترب من (اليهود) كما تسميهم، وهي تلعن هذا الزمان الذي يحتاج فيه الفلسطيني أن يلعب الغمّيضة ويتخفّى بألف طريقة ويناور لكي يدخل إلى مدينته ويلتقي أهله، ويزور مقدساته، و، و،

وما رأيكم يا شباب لو قرأنا الآية:" وجعلنا بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون"، لم يكن لديّ أي اعتراض على هذا الاقتراح، فالقرآن يسري في صدورنا نحن المسلمين من المهد إلى اللحد، ما لم يمنعني من تنبيهها وهي تصادق في الحين بأن الطريق وكل موقف هنا مُفخّخٌ بكاميرات المراقبة، وهذه لا تنفع معها الطلاسم ولا التعاويذ، ناهيك عن يافعين، من فصيلة مراهقات يهوديات شقراوات، مجلوبات من السويد والنرويج، أصابعهن وأصابعهم سبّابتها على الزناد، لكل من تُسوِّل له نفسه العبث بالأمن والنظام لدى العبور، لا أريد أن أخيفكم، تضيف نون،

ولكن هذا هو الحال هنا مع اليهود، لا نأمنهم ولا يأمنوننا، نحن محقون لأنهم محتلون، أما هم فلا حق لهم في ما يفعلون، وتشتم، تشتم، لا كلمة منا، هي امرأة لسان، صوتها الرعد والهزيم، وشدّوا يا شباب أحزمتكم، لن نوفر لهم أي فرصة لإيقاف السيارة، واظهَروا طبيعيين، ياسين إلى جوارها رفع عينيه إلى السقف في لا مبالاة، كأي مراكشي يمشي متباهيا في شارع جيليز، عبد الغني وأنا أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، كاثنين لا يعنيهما الخارج، فيما السيارة في الطابور تقترب من دورها، واحدة وراء الأخرى، فما بعدها، فجأة، صدفة، يقفز الجندي أبعد من حاجزنا ليتدخل لأمر ما في حاجز الخروج، ويشير بيده إلي اتجاهنا نحن الذين في حاجز الدخول بإشارة الموافقة على المرور، بتزامن مع حركة نون قد ضغطت على الدواسة ترافقها شتائم أرسلتها بكرم حاتمي أغدقتها خلفها متسارعة كطلقات رشاش أو كلاشنكوف!

ما أجمل أن تزور مكانا بحس وشروط المغامرة، منهوشا، متقاسما بين المحاذير والتوقعات. في زيارتي الأولى إلى القدس لم أكن أخشى شيئا عدا كيفية ووضع معبر قلنديا الذي مررت فيه راجلا بسلاسة منقطعة النظير، ولما خرجت وجدت باصا صغيرا ركبته مع غيري بثمن بخس أوصلنا إلى محطة النقل في القدس الشرقية، غادرتها ومضيت أمشي رفقة فتاة مقدسية كانت تنتظرني لتعرّفني على المعالم الكبرى للمدينة، زرتها على عجل، الأقصى والقبة والأسواق، دخولا وخروجا من باب العامود، وعدت إلى رام الله كأنما بخُفي حنين. أما الآن، رفقة نون، فإني قررت أن أقتص لنفسي من اختصار الزيارة الأولى التي مرت في ظرف غير مناسب كان الجنود الإسرائيليون يطاردون فيه الواصلين إلى الأقصى، بينهم يهود متطرفون يعادون المصلين المسلمين، أنا بينهم والبنت المرافقة خافت عليّ من بطشهم، فاستعجلتني كثيرا، وصرت أنا من يخاف عليها، ونحن نركض بعد لأي في أزقة ملتوية، وحوانيت التجار نعبر أمامها تغلق أبوابها تباعا اتّقاء شر المهاجمين. قررت أن أقتص هذه المرة، فأزور الأقصى والقدس العربية كاملة بنفَس هادئ، وعين فاحصة، وذاكرة تسجل، وقلب بارد، أكاد أقول، إذ حقدي على هؤلاء المحتلين في المرة السابقة أعمى بصري، وزاد مع فورة ذهولي بالوصول إلى هذه الأرض المقدسة، غلا الدم في شراييني سمعت معه نبض قلبي يكاد يشق صدري، وكنت أمشي كمن يتحرك بين الأرض والسماء، لا الأولى أطأُها ، خاصة وأنا أمشي حافٍ ضاع حذائي، ولا أنا ينبت لي جناحان فألتحق بمحمد صلى الله عليه وسلم في إسرائه والمعراج. رفقتي كذلك رأيتهم، أحسست بهم متلهفين، الحاج عبد الغني أولنا لو استطاع لطار رأسا إلى المسجد الأقصى، وقبة الصخرة أولا، عندها وقفنا في البداية بعد أن أذِن لنا الجنود الإسرائيليون المراقبون للزقاق بالعبور نحو المسجد، تسمعهم يرطنون بلهجات شتى، ويبدون ودا سمجا، لا بد أن تمسك أعصابك كي لا تنفجر في واحد منهم، ذاته من يرفض أو يسمح لك بالمرور لزيارة مقدساتك، ينظر في عينيك

وأوراقك بصفاقة بلا مزيد، ولا تملك إلا أن تصابر وتكابر، كي تفوز بخير الدارين.

مرة، وفي إحدى شطحاته اللا تُحصى، صرح العقيد معمر القذافي، وهو في ذروة سلطته الجماهيرية، معلقا على تشبث الفلسطينيين بالقدس عاصمة للدولة الفلسطينية؛ صرح بأن المسجد الأقصى وقبة الصخرة ليسا أكثر من حجر، فإن ذهبا يمكن تعويضهما بالبناء في مكان آخر، هكذا يمكن حل جزء من النزاع الفلسطيني ـ العربي الإسرائيلي. لم ينتبه، لم يفطن العقيد بالأحرى لمعنى الرمز وقيمته في ثقافة الشعوب ومخيالها، وما كان لأحد من مقربيه أن يعترض على هذه الفتوى المجنونة، من شخص، كيف، يعتبر نفسه فوق الرسل، وكتابه الأخضر في مرتبة الكتب السماوية. لم يفكر هو نفسه لماذا لم يعتبر أن إصراره على البقاء في ثكنة العزيزية، إنما مبعثه، على حد زعمه، تحدٍّ للأمريكيين الذين هاجموها وحولوها قاعا صفصفا؛ وبأن عناده لاستقبال ضيوفه تحت الخباء ونصب خيمته حيثما حل وارتحل، إنما أراد به رمزية التشبث بأصلة وبداوة ما، في مواجهة الحداثة الغربية، التي يعاديها زعما، لم. أقول هذا، وأنا أتطلع لقبة الصخرة، ولا أريد أن أتزحزح بعيدا عنها، أحب أن تبقى في مرمى بصري تشعشع بلونها الذهبي، كأنني إن أشحت عنها، والتفتُّ ستختفي إلى الأبد، ويزول الرمز، نظرتي المبجلة بالإجلال والقداسة هي كل شيء، ولم يكن بوسعي أن أشرح هذا المعنى حينه للمناضلة نون، رغم كل حماسها لوطنها وما يزخر به من تراث مقدس. مثلي، ربما أكثر، وجدت الحاج عبد الغني، واسمه لا بد أن يقترن بهذا اللقب، إذ عدا حجّاتِه، فهو يعتمر كل عام، وفي مكة والمدينة يحلو له أن يقضي عطلته السنوية، طوبى له. أبى الحاج إلا أن ننزل إلى جوف الصخرة ونصلي ركعات، وقد فعلت، لكنه أطال، ولم أستطع أن أقطع عليه صلاته وتهجّداته، وكذلك في المسجد الأقصى، وكأنه يعاتبني لاستعجالي له، تحدث قائلا، من يدري متى سيتاح لي الصلاة مرة أخرى في هذا المكان الطاهر، وأغمض عينيه وهو يتلو الآية:" سبحان الذي أسرى بعبده..". كنت من رأيه وفي صميم شعوره، لولا أن أمامنا أماكن مقدسة أخرى لا بد من زيارتها، وهي مجتمعة متجاورة هنا، وفاتني في رحلتي الأولى الوصول إليها، بعد أن داهمنا الجنود واليهود المتعصبون، فتبعثرنا هاربين !

* * *

تقدمت الزعيمة نون أمامنا، ياسين عدنان متلهف للوصول إلى باب المغاربة، خففت من حماسه، دا كان زمان، طبعا، ففي الهجوم الإسرائيلي سنة١٩٦٧ سوّى اليهود الحي المغربي أرضا، ولم يبق إلا الباب شاهدا ورمزا لزمن فات. لم يفتر هذا من حماسنا، مشينا مسرعين لنقف أمام الباب ونأخذ خاصة صورا تذكارية تحت الإسم المنحوت على بلاطة من فخار أصفر، وبخط رقعي:" باب المغاربة"، وهذا موقف لم يكن العقيد القذافي الذي لم يكمل شارعا واحدا بمعنى الكلمة في جماهيريته الغوغائية،

فأنّى له أن يفهم قيمة ودلالة الرموز. في هذه اللحظة، وتحت هذا الباب القوس، التهبت في النفوس المشاعر، وامتزج الحزن بالضيم، بالفخر والاعتزاز، أيضا، أننا نحن المغاربة كنا هنا، وهذا بابُنا، وحبنا وإخلاصنا للقدس ليس طارئا، أقواه التزامنا القومي بقضية فلسطين، مثل أي فلسطيني، وربما أكثر.

عبرنا باب المغاربة، وتذكرت يهود المغرب الذين عاشوا معنا قرونا، أهل الحضر والمَضر، في السهل والجبل، كانوا جميعا مغاربة بلا قيد أو شرط، يبيعون ويشرون، ويمارسون طقوس ديانتهم كما يحبون، وخلال الحرب العالمية الثانية، والحملة النازية ضد اليهود، وجدوا في الدولة المغربية، وملكها، رغم تواطؤ المارشال بيتان، حماية لهم من الاضطهاد، لكن الصهيونية كانت بالمرصاد، فتعبّأت لترحيلهم بعد استقلال المغرب، وفي نهاية ومطلع الستينات بدأت هجرتهم الكبرى إلى أرض ميعادهم إسرائيل، أو إلى فرنسا ومنها إلى دولة صهيون، وعن هذه المرحلة كتب الشاعر المغربي الراحل أحمد المجاطي قصيدته التراجيدية" إكزوديس" كناية عن السفينة الشهيرة بهذا الإسم وتسخيرها لترحيل اليهود سنة ١٩٤٧. توقفنا عند بوابة إلكترونية تفحص المارة القادمين إلى الرمز اليهودي الأكبر، "حائط المبكى". مشينا خطوات، وإذ هنا خليط من سياح أوروبيين، ونحن في موطئ أرض مرتفع، تحته سلسلة درج طويلة تنزلق إلى فسحة أرض واسعة تنتهي عند سور كبير وطويل، مرتفع، هذا هو حائط المبكى، قلت لعبد الغني، هل يغريك النزول إليه ويدي بيده. وقفت نون خلفنا غير معنية، فهي تعرف هذا المكان وأصحابه حتى التخمة وأزيد، فبدت لا تبالي، تضرب شمس قوية وجهها تعرضه لها كأنها في حاجة إلى هذا اللفح بينما وضعت نظارتين كبيرتين على عينيها وبشعرها الكثيف، ببعض خصلاته المنفوشة، بدت مثل ممثلة ستؤدي وشيكا دورا وهي على ساحل جزيرة كريت، وقد تعجبت أنها لزمت الصمت تقريبا في هذا المكان، إلا لمعلومة أو إشارة، ثم اختفينا عنها صرنا ننزل الدرج، ياسين يتقدمنا بشبابه الغضّ وحبه الجارف للتعرف، وفجأة ها نحن نراه في ما يشبه ورطة. أنهى النزول في الدرج المؤدي إلى الحائط، مباشرة أمامه حاجز خشبي هناك حارسات يقفن خلفه، وهن يمددن الزوار، كل زائر، بطاقية، الكيباه، ليضعها على رأسه، صغيرة، بيضاء، تحفزت والحاج، ننتظر كيف سيتصرف ياسين إزاء هذا الموقف، وبالطبع، فإننا استبعدنا حقا أن يقبل بوضع الكيباه جوازا للمرور، وفي الوقت تساءلنا ماذا ترانا سنفعل بدورنا إن رغبنا أن لا يفوتنا الاطلاع عن كثب على هذا الحائط الذي يتباكى أمامه اليهود منذ ما لا أدري، ونحن في الحقيقة لا نخفي نفورنا، مخافة إن فعلنا كأننا سنرتد عن ديننا، أو نعتنق مذهب آل صهيون، وإذن، فنحن من المارقين، الضالين. فجأة ما أحسسنا إلا مثل مدٍّ يدفعنا ها هو فوج سياح أوروبي، من الشمال، يتقدم إلى الحاجز الخشبي، ووجدنا أننا حُشرنا فيه، معه، انصرف أغلبه يتناول الطاقية ونحن صرنا في الفسحة ونتملّى المتدينين يرتلون صلوات وتعاويذ التوبة وطلب الغفران،

وتنقلنا في زوايا هذا الفضاء المؤسطر بأسباب وجوده، ننظر كما لو إلى تماثيل وأيقونات في متحف بدائي قديم جدا، لا نحس، ولا ننفعل، ولا يثير فينا ما نرى أي شعور، هذا اعتقادي شخصيا، عدا قيمة التعرف والاكتشاف، ومرد هذا بطبيعة الحال إلى افتقاد أي قيمة رمزية بالنسبة إلينا، نحن المسلمين، أولا، وثانيا، لأننا منفعلون بقضيتنا، وامتلأنا غيظا ونحن نرى أن اليهود صنعوا جسرا خشبيا عاليا يرتفع فوق الباحة والحائط، منه يعبر اليهود مباشرة إلى باحة المسجد الأقصى لاستفزاز المسلمين.

* * *

لن تنسوا السيد المسيح، قالت نون، مكتسية قميصا وتنورة أسودين، كأني أراها للمرة الأولى، ونظارتها السوداء تأكل نصف وجهها، أي نعم، يسمرّ أو يحمرّ من أثر أشعة الشمس التي تعرضت لها، تركناها في أعلى سور الطريق العام تنتظرنا وهي تتفرج على المارة بتراخ، كأنها في يوم عطلة. أجبنا وبصوت رجل واحد، وهل يُنسى ابن مريم عليه السلام؟! سرنا، ياسين وعبد الغني وظلي خلفها تقودنا باتجاه كنيسة القيامة، حيث يُفترض أن المسيح صُلِب إلى جانبها ثم نُقل إلى موقعها وسُجي ودُفن في النهاية، وفي القرن الرابع الميلادي أشرفت الملكة هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين على بنائها الذي استغرق من ٣٢٥ م إلى ٣٣٦م. طفقنا نمشي من زقاق إلى زقاق تمتد فيها حوانيت صغيرة للتجارة وأرضها مسفلتة بحجارة صخرية ملساء، تنفذ الشمس تتقاطع أشعتُها مع الظلال في مساحات متفرقة ومتناسبة حسب أماكن البناء، وكان الوقت منتصف الظهيرة والطقس حار ولكن جاف، لا يعرق الجسد، والدليل هؤلاء الإخوة من الرهبان الفرنسيسكان يمشون في موكب مستقيم حاملين الصليب ويهزجون بتراتيلهم، آتين من " طريق الآلام" الذي مشى فيه يسوع حاملا صليبه وهم يقتادونه إلى الصلب، قاصدين الكنيسة، صرت في ذنَب الموكب، غناؤهم وحده يكسر صمتا استقر في الجو رهبة وخشوعا واحتراما لمرورهم، بينما كثير من مناسباتنا الإسلامية يصحبها الضجيج والهرج، لا عجب دعوة المصلين يوم الجمعة قبل الأذان وخطبتها المصلين إلى التزام الصمت، ترد بصيغتها المحفوظة، في الحديث النبوي:" إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت" وفي حديث آخر: " ومن لغا فلا جمعة له، أنصتوا رحمكم الله، أنصتوا يغفر لي ولكم الله". نسيت صحبي، إلى أن التقيت بهم داخل الكنيسة الباهرة ببنائها الضخم، وعمارتها الفخمة، وزخرفة قبابها وأسوارها العالية، أعجبني أن الديانة المسيحية ممثلة فيها بكامل مذاهبها وفروعها، لها محارب ورموز، لذا يحجّ إليها الجميع، ويقصدها آلاف الحجيج كل عام، ما عدا حين يستشرس الإسرائيليون في المواجهات التي تحدث مع السكان العرب، فيظهرون عندئذ حنّة يد الاحتلال، وأنهم من يحكم المكان، منذ أن استلوا عليه سنة ١٩٦٧، بينما هي أرض الله لا حق لهم فيها ولا

سلطان. عندئذ تنطق على عصيهم وبنادقهم لغة العنف والدم، يغلقون الشوارع وكل المنافذ المؤدية إلى المزارات المقدسة، ويُسرفون في منع الصلوات، بأمّ العين رأيت هذا في زيارتي الأولى حين انتقلت إلى مدينة الخليل، قد حاصروا مقام النبي إبراهيم وخنقوا الممرات المؤدية إليه، تصل إليه من مسلك ضيق يشبه دهاليز السجون، بعد أن تنحني وتخضع للمراقبة في الأبواب الإلكترونية وعدسات الكاميرات، دعك من العيون المسلطة للحراس وحارسات في سن المراهقة يرمين الحجيج بشرر، بينما تمّ انتزاع الجزء الجنوبي والشرقي من المزار، القسم الأوسع منه، خُصص لليهود براحة وارتياح، يدخلون بدون مراقب ولا حسيب، يعي سكان الخليل ما يعني هذا العسف والشطط، لذا يصمدون، لن نترك لهم الأرض مهما فعلوا، هي أرضنا من أول التاريخ، هبة من رب العالمين.

امتلأنا حتى التخمة بالأماكن المقدسة، واحتجنا إلى الهواء الطلق، خارج المحارب والزوايا المعتمة، والبناء المصمت للكنيسة، وطقوس الرهبة الربانية المهيمنة، ترفعك إلى السماء وتفطنك بها اكثر من أن تربطك بالأرض ومتاعها متاعبها، لكنها تشحنك أيضا بعتاقة الزمن، القرون التليدة، البعيدة، التي عبرت على هذه الأرض، وحسب أهلها أنهم امتلكوا القوة والمجد، وأنهم خالدون، تساءلت إن كان بنو صهيون يفكرون في الزمن قليلا، أم أن امتلاكهم اليوم للقوة وتحولهم إلى مجتمع مدجّج بالسلاح، قائم على اغتصاب أرض الآخرين والبطش بهم والاستيلاء على أملاكهم ومقدراتهم، يكفيهم هذه المؤونة وأي اعتبار آخر، وكأن الحكمة وعِبَرَ التاريخ خاصةٌ ومتروكةٌ للمهزومين ، طبعا، ما دام التاريخ يكتبه دائما المنتصرون. تعبت من هذا الوجع. لماذا لا أكتفي بالنظر وأكفّ عن التفلسف والحسرة؛ إنه طبع سيّءٌ حقا يصاحبني ولا يجعلني صالحا لسفرة جماعية، وأنا أفضل فعلا التنقل بمفردي، أتدبر أمري قدر المستطاع، وأجنّب غيري عكر مزاجي، وشطط أنانيتي، يا لي!

بلغت الساعة الواحدة ظهرا، غادرنا كنيسة القيامة عطاشا، فقادنا زعيمنا المناضلة نون إلى محل عصير بادر ياسين فدفع عنا أربعتنا غُرّافا من عصير الرمان لكل واحد، لم أذق ألذّ منه، عبّرت عن التذاذي بعذوبته، وكل الخيرات التي تعطيها هذه البلاد من خضر وفواكه بأكوام، تفتن العين قبل المذاق، رغم ما يواصل الاحتلال مصادرته من أجود الأراضي. كأنها كانت تقرأ أفكاري، علقت نون مباشرة، ماذا تظن، إنها أرض مقدسة فلماذا تستغرب؟! وهي محقة، هذه أرض الأنبياء، ورغم عدم ميلي إلى التفسير السحري للظواهر وجدتني أميل إلى كلامها، نحتاج أحيانا إلى أي تأويل لتفسير المعنى المغلق والرمز المتسامي. ربما هذا ما جعلني ونحن نواصل جولتنا، ننتقل إلى سوق خان الزيت العامر والحافل بالأثواب والحلويات والبهارات، المرصع بالألوان والأضواء، تمشي في ظلاله كما تمشي في سويقة السباط بالرباط أو أسواق فاس العتيقة، أمعن في النظر إلى الوجوه، مثل باحث آثار أو عالم أنتروبولوجي ينقّب عن جذور الإنسان، وأستحضر وجوها أخرى من كل المدن

العربية التي عشت فيها وزرت، وصارت تقريبا ممسوحة عندي كأنها بلا ملامح، أريد أن أستنبتها هنا من هذه الوجوه، من هؤلاء العرب، من الفلسطينيين الباقين في مدينتهم، وأنا أحمّلهم ما لا طاقة لهم به، أُضفي عليهم من الصفات والخصال أكثر مما يحتملون، أعود وأعترف أن هذا من سيء طباعي، المبالغة في تقدير المشاهد والأمور لتنسجم مع مخيلتي المريضة، وهواجسي الكابوسية، ووساوسي المقلقلة، وإلا فهؤلاء الناس بشر عاديون، هنا في القدس كما في رام الله، يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق ويتزوجون ويخرجون من بيوتهم صباحا هم وأبناؤهم يذهبون إلى المدارس والمكاتب والمعامل، ومنهم من يخبئ في جيبه خنجرا ويترصد جنديا إسرائيليا في زاوية من الشارع ويطعنه، قد فاض به حال الاحتلال!

إنما هنا في القدس، يكتسب وجود السوق معنى أبلغَ، يغدو مفعما بالدلالة والإحساس، جالبا للذكرى، ومثيرا أيضا للأشجان، لما كان عليه وما هو الآن. السوق العربي المقدسي، أكثر من فضاء للبيع والشراء، سواء للمقيمين أو العابرين. هو عندي مركز آخر للمقاومة. كل تاجر يقف هنا ليبيع ما يقيم به أوَده وأسرته مقاوم. كل من يقتني أقل بضاعة من هنا مقاوم. أي بضاعة معروضة هنا للبيع هي سلاح في وجه المحتل. هنا ستبقى تسمع اللغة العربية، وستفرضها على الغاصبين، وجنودهم يستعملونها بركاكة كي يظهروا تقرُّبا مريبا ومصطنعا مع أهل البيت الحقيقيين، وإلا أي تقارب ومودة يمكن أن تجمعك بأشخاص يسألونك صباح، مساء، إلى أين أنت ذاهب، بينما أنت في بيتك، وهم اقتحموه عُنوة وتملكوه غصبا ويسألون! لم تبق خواطر حارقة تجيش في نفسي، إذ سرعان ما فاضت على لسان نون، بقوة كظمت غيظها مؤقتا ونحن ننتهي من خان الزيت يُفضي بنا مرة أخرى إلى باب العامود من حيث بدأنا جولتنا، ثم وقد تركنا الباب وراءنا عنده الجنود الرشاشات معلقة على أكتافهم، ودائما أصبع على الزناد، طفح كيلُ غضبها من جديد وفاضت الحِمم، يا أولاد، ويلعن ..وانظروا من يومين طخُّوا شاب هنا قرب الباب.. انتظرت أن يهدأ البركان حبة، ولم يهدأ، قلت سأركب الموجة وهي جائحة، خذينا يا العزيزة إلى القدس الأخرى، خارج الأسوار والأبواب، هذه زيارة قد لا تتكرر، أنظري إلى بشرتي السمراء، غدا قد يُمنع السُّمر من الوصول إلى هذا التراب، وأنت نفسك رأيتِ بأي مشقة وصلنا، فهيا بنا إذن إلى أعالي المدينة، كنا قد عدنا إلى السيارة المركونة في مرآبها وخضنا في شارع سليمان، نصعد إلى الحي الفوقي باتجاه القدس الأخرى التي طلبت، صرخت نون فجأة ونحن المغاربة الثلاثة نغترف ما يتقدم أمامنا عبر زجاج السيارة من مشاهد، أناسي ومبانٍ، كأننا نكتشف الوجود للمرة الأولى، أو نبغي رؤية استثنائية لا يكفينا المعطى للعين، وهذا ما أدركته نون حين غادرت الشارع الرئيس وانعطفت يسارا إلى حي مكون أساسا من فيللات مستقلة، على أرصفته أشجار ظليلة، ويسبح في خضرة شبه كاملة. حي منسق، نظيف،

والبيوت فيه مكونة من أرضية وطابق أو طابقين لا أكثر. أبوابها من قضبان حديدية مشبكة تسمح برؤية المدخل، يرتفع درجات تؤدي إلى الباب الكبير الخشبي، هو مدخل البيت، زليج فسيفسائي ظاهر القدم، هل ترون هذه البيوت الجميلة، التليدة يا إخوان، هي لكبريات العائلات الفلسطينية، وشرعت تتلو أسماءها: الحسيني، النشاشيبي، اسطمبولي، عويضة،، العلمي، وهذا أنظروا حتى لا تفوتكم هذه، إنه بيت عائلة إدوار سعيد، و، تنزل نون خبطا في المحتلين، يدّعون أن هذه بيوتهم، هل تعلمون أن غولدا مايير استولت على أحد هذه البيوت، وكان منحوتا أعلى بابه عبارة "ما شاء الله" فجلبت منشارا حديديا كهربائيا وانتزعت العبارة لتمحو أي أثر للماضي، ومثلها فعل يهود كثيرون جلبتهم الحملة الصهيونية من كل الأصقاع، وهم يواصلون اليوم في عديد مدن فلسطينية احتلال البيوت في الأحياء القديمة، القدس والخليل وبيت لحم، يهجّرون ساكنتها ويضعون على مدخلها العلم الإسرائيلي وكاميرا مراقبة، المهم عندهم أن يحتلوا.

تجاوزت الساعة الثانية زوالا، وآن لزيارتنا للقدس أن تصبح، تؤول معها إلى الزوال. لا خيار لنا. ليس للعربي خيار، للفلسطيني خاصة. أطلالٌ في داخلنا، وما في الخارج، نمشي فيه، وننظر إليه كأطلال. حين وصلت لعمّان، قابلت المنفيَّ بها، صديقي الشاعر العراقي الكبير حميد سعيد، قلت له لما سألني ما انطباعي عن رحلتي الفلسطينية، أجبت: إنني عائد من الأندلس، مع الفرق أن الأندلس كانت أرض الآخرين، ولما ضعفت شوكتنا، وتهتّك أمراؤنا استعادها أصحابها، بينما فلسطين أرضنا، أخشى رغم إصرار ومقاومة أهلها، أن لا يبقى منها سوى باقة مراثي وحفنة ذكريات نستوحيها ونصوغها شعرا كما فعلت أنت في ديوانك" أوراق الموريسكي". التزمنا نحن موكب الزعيمة نون صمتا كالحِداد ونحن نغادر، صرنا في نهايات المباني الجنوبية للقدس، المترامية يمينا ويسارا، عُمرانٌ تزايد في السنوات الأخيرة لتكثيف الاستيطان وترسيخ احتلال المدينة، التي يصر القادة الفلسطينيون على أنها ستكون عاصمة الدولة الفلسطينية، ويمعن الإسرائيليون في تهويدها لنقض هذا الحلم. حدست نون ولا شك حزننا، فرمت حجرا في بركته ،أطلعتنا ونحن في طريق العودة على بيت عائلتها في القدس، في شبه مفاجأة، لأنها أعلمتنا في البداية أنها من حيفا، اطمئنوا، بيت كبير فعلا بشبابيك خضراء في منعطف الطريق المؤدي إلى القدس القديمة، لن نترك لهم هذه الأرض، وبأي ثمن لن نبيعه، حدثتنا عن الإغراءات المالية لليهود كي يتملكوا البيوت المقدسية، عن التحرشات، أيضا. لن يتكرر ما حدث في ال ٤٨. هي آخر عبارة حاسمة، جازمة، قالتها والسيارة تعبر، وهذه المرة، بالحاجز الإسرائيلي المؤدي إلى رام الله، وهي تسوق بسرعة ملحوظة، فقد كان عليها أن تلتحق بمعرض الكتاب لتستأنف عملها التطوعي مع عشرات من الشباب، صحافيين وطلبة وأدباء، في فريق عتيد يعمل بروح رفاقية تحت إشراف مدير المعرض ومسؤوليه الأستاذين عبد

السلام العطاري ومحمد الأسمر، ولا أتحدث عن الجنود المجهولين، هم كثر. مساء اليوم نفسه عدنا التقينا في ليل رام الله، في نادي الشباك، مشرب، وملتقى الأدباء والفنانين، حيث ابتهجنا وطربنا بالشعر والموسيقى، ورحب بنا صاحبه الشاعر، رجال ونساء في فضاء واحد وفي تمام الجمال والود والحق في الحياة. في الغداة كان مسك الختام بلقاء الرئيس محمود عباس في إقامته بالمقاطعة، حيث كان يقيم قبله الشهيد أبو عمار. حدثنا أبو مازن حديثاً صريحاً، وشرح الموقف المأزوم والجامد للمفاوضات، واستمرار الطرف الإسرائيلي في رفض قيام الدولة الفلسطينية، بينما نحن ماضون ـ يقول، ويتعهد ـ لإقامة هذه الدولة مهما كلف. أقوى ما سمعنا منه مساء تلك الليلة هو أن الفلسطينيين هنا باقون، ولن يتكرر خطأ نكبة ١٩٤٨، إشارة إلى تركهم وهجرتهم أرضهم، وتفرقهم في المخيمات ثم الشتات. أبدا، إننا هنا باقون!

ليس لهذا الفصل من ختام، وإلا هل تختم الأشواق، وينفذ الحنين، خاصة إلى أرض ما تزال أظافر الاحتلال منشوبة فيها حتى العظم: أرض العرب، أرضي ووطني؟ لا وكلا، أبدا. سيغادرنا جسدي ذات يوم، سيموت الحالم، يفنى جسد المشتاق، يختفي العاشق، لكن الحلم باق، والعاشق وراءه، روحه تتبعه، تمشي بخطاه، ولذلك انظروا إلى السماوات والأرض وما بينهما كيف تزدحم بالأطياف، بأرواح الشهداء، بنا نحن جميعا أمواتا وأحياء، لنا عبارة واحدة ومتحدة: لن نتخلى عن فلسطين، هي دنيانا وآخرتنا، وهذا عهد الله والشوق بيننا.

باريس في ٢٢ـ ٠٦ ـ ٢٠١٦